محمد على

بعد خروج الفرنسيين من مصر ظهر على مسرح الأحداث المصرية الضابط محمد على الذى تقلد ولاية مصر عام ١٨٠٥ وهو الرجل العظيم الذى يعتبر مؤسس نهضة مصر الحديثة

رأى محمد على أن الجيش هو الدعامة التى يشيد عليها ملكه الجديد فوضع نواة الجندية المنظمة فى أسوان عام ١٨٢٠ وأنشأ أول جيش قوى عرفته مصر فى تاريخها الحديث . وعلى الرغم من قلة عدد السكان وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل استطاع أن ينشىء جيشاً حديثاً وأسطولا قويا وأن يمدها بكل مايحتاجان اليه مما يصنع فى قلب البلاد . ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل الذى اضطر إليه محمد على فى مصر والحجاز والمورة وسوريا والأناضول

أنشأ محمد على مدارس شتى للتعليم العسكرى وقسمه إلى درجات ومدرسة للطب ومستشفى عسكريا ومدارس عدة للمشاة ومدرسة للفرسان ومدرسة للمدفعية ومدرسة للهندسة العسكرية الخ . (١)

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤنة والأدوات والملبس وما إلى ذلك . فقد أقام محمد على مصانع الذخيرة والأسلحة فى صروبنى الحصون المختلفة على سواحل مصر لأغراض الدفاع

انشأ محمد على كل هذا حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش . ومما ينبغى

(١) كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير للمؤلف

إبرازه هنا أنه استطاع أن ينظم جيشاً كبيراً وأسطولا ضخما وأن يقيم كل هذه المصانع والمعاهد المتعددة لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بحاجاته جميعا — وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا . ويخوض حروبا شتى معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها ومن غير أن يقترض قرشا واحداً من الخارج .

لم يكد محمد على يثبت دعائم ولايته الجديدة حتى وصلت إلى الاسكندرية حملة

محمد على يوليه الشعب وزعماؤه حكم البلاد المصرية

انجليزية بقيادة الجنرال « فريزر » . ونزلت قوة أخرى فى رشيد بقيادة الجنرال « ويكوب »

نزل جنود الحملة الأولى إلى المدينة بأمان ـ أما الثانية فما كادت تشتمل أحياء رشيد على جنودها حتى أصدر محافظها « على بك السلانكلى » أوامره إلى أهلها بالمقاومة والقتال ـ فسقط الكثيرون منهم قتلى ومن بينهم قائدهم . ولاذ الآخرون بالفهقرى إلى الاسكندرية بطريق أبى قير ـ وبلغت خسائرهم ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحا وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيراً

أصاب هذا الظفر المصرى ـ الجيش الانجليزى فى كبريائه وأراد الجنرال « فريزر » الانتقام فعهد إلى الجنرال « ستوارت » قيادة حملة أخرى إلى رشيد ـ ودارت المفاوشات بين الانجليز والمصريين الذين وصل اليهم الامداد بقيادة « طبوزأوغلى » واستمر القتال عنيفا عدة أيام حتى انتهى بانتصار المصريين فى معركة الحماد وبلغت خسائر الانجليز ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسيراً . وأسرعت قوات الجنرال ستوارت وكانت مرابطة فى جنوب رشيد بالانسحاب قبل أن يقضى عليها المصريون فوصلت إلى أبى قير ومن هناك استقلوا السفن إلى الأسكندرية

كانت معركة الحماد (٣٠ ابريل سنة ١٨٠٧) خاتمة هزائم الحملة الانجليزية وأسقطت هيبة القادمين . وخاصة لما جمع طبوزأوغلى بك أسراهم وشحنهم فى السفن إلى القاهرة ليشاهد الناس نتيجة انتصار رجال مصر ـ وبوصولهم سيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة وكان عددهم ٤٨٠ أسيراً

وتوقع محمد على أن يمتنع الانجليز فى الأسكندرية بعد وصول الامداد إليهم فأخذ يعد العدة للزحف إلى الاسكندرية ليجلى الانجليز عنها . ولكن جاءه رسول من قبل الجنرال « فريزر » يحمل إليه رسالة المفاوضة فى الصلح وشرطها الأول جلاء الجيش الانجليزى عن مصر

* * *

وجه محمد على جل عنايته إلى الجيش الذى سيدعم عليه ملكه فى وادى النيل والذى ساعد به تركيا فى جميع محنها ـ وكانت محنتها الأولى فى بلاد العرب فأوفد

أولا ابنه طوسون ثم ابراهيم على رأس الجيوش المصرية لاخضاع الثورة بها . فانتصرت فى عدة معارك دامية نذكر منها بسل والدرعية ـ وفتحت المدينة ومكة والطائف . ودامت الحرب ثمانى سنوات انتهت بظفر ابراهيم ظفراً كاملا

وكانت الحرب السودانية ثانية انتصارات الجيش المصرى فيما بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٢٢ وأهم معاركها كورتى وسنار وبارة

ثم استنجدت تركيا بمصر فى الحرب اليونانية (١٨١١ ـ ١٨١٨) وهذه الحرب وإن لم تكن تأتى بنصر حاسم لتألب الدول الأوربية على تركيا ومصر لكنها كانت ميدانا لتدريب جيش مصر على الحرب الحديثة . ومن أهم معارك تلك الحرب الاستيلاء على جزيرة كريت وقبرص ومعركة نفارين البرية « كالاماتا » و « تريبوليتز » و « مسيولونجى » و « آتينا » (١٨٢٧)

ثم جاء دور الخلاف بين تركيا ومصر . ونشبت حروب الاستقلال ودام القتال عامين (١٨٣١ ـ ١٨٣٣) وبطل تلك الحروب القائد « ابراهيم باشا » ورئيس اركان حربه (سليمان باشا) ومن أشهر معارك حروب الاستقلال ـ الزراعة (١٤ إبريل ١٨٣٢) وعكاء ودمشق وحمص وحلب ثم معركة بيلان الكبرى (٣٠ يوليو ١٨٣٢) وقونية (٢١ ديسمبر ١٨٣٢) وتلتها معركة كوتاهية (٢ فبراير ١٨٣٣) وبعدها أصبحت جيوش محمد على على مسافة قصيرة من الآستانة .

وهنا تدخلت الدول الأوربية للتوفيق بين مصر وتركيا فاتفقتا فى معاهدة كوتاهية وبها أصبحت مصر وراثية فى ذرية محمد على على أن يحكم سوريا كلها والسودان

وبمقتضى هذه المعاهدة بسط محمد على سلطانه على دولة كبرى اشتملت على مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وسوريا وولاية أطنة وبلغت مساحتها أكثر من نصف أوربا وتزيد ١٥ مرة عن مساحة فرنسا

وهدأت تركيا بعض الوقت لكنها بعد قليل بدأت تستعد للأخذ بالثأر وتساعد فى اشعال الدسائس والثورة بين أهالى سوريا فلم يجد محمد على أمامه إلا أن يعلن استقلال البلاد أمام وكلاء الدول الأجنبية (مايو ١٨٣٨)

وفى أوائل ١٨٣٩ بدأت تركيا تتحدى رجال الحاميات المصرية فى شمال سوريا ثم احتلت بعض البلدان . وأخيراً اصطدم الجيشان فى (يونيو ١٨٣٩) فى معركة

(نزيب) الكبرى التى دارت فيها الدائرة على الجيش التركى ومنى بهزيمة شنيعة وظفر ابراهيم باشا ظفرا حاسما على الأتراك

ومرة أخرى تدخلت الدول الأوربية وهددت محمد على باعلان الحرب عليه

محمد على الكبير

إذا أصرّ على تقدم جيوشه وهدد الأسطول الانجليزى الموانىء السورية وميناء الأسكندرية

وأمام تهديد الدول انسحبت الجيوش المصرية المنتصرة من الشام وعادت إلى وادى النيل بعد أن أدت واجبها

وفى هذه الحروب أظهر جنود الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا صفات حربية باهرة ـ وعن هذه البطولة تحدث هذا القائد العظيم فقال « إنه من المستحيل على أى جنود فى العالم أن يقوموا بأعمال بطولة خارقة مثل جنودى »

وهكذا انتهت حروب الامبراطورية المصرية ـ ولولا تدخل الدول الأوربية لتغير وجه التاريخ ودارت الأحداث دورة أخرى

وفى أيام محمد على أرسلت مصر إلى أوربا نخبة من الشبان المصريين الذين شادوا النهضة المصرية مع مؤسسها الأكبر ـ ومن هؤلاء محمد مظهر ، حماد عبد العاطى ، على مبارك ، محمد شريف ، على ابراهيم وغيرهم كثيرون من الأطباء والمهندسين ورجال القانون والعسكريين الخ .

عباس الأول وسعيد

وفى عهد عباس الأول أرسلت مصر حملة لنجدة تركيا فى حربها ضد روسيا وكانت القوات البحرية بقيادة أمير البحر « حسن الاسكندرانى باشا » والحملة البرية بقيادة الفريق سليم فتحى باشا وقد أدى الجنود المصريون واجبهم بكل اخلاص للدولة الشقيقة ـ وكانت أهم المعارك التى خاضتها ـ معركة سلستره والدفاع عن طابية العرب ضد غارات الروس المتتابعة

وقد درج عباس باشا على سنة أبيه بارسال البعثات العسكرية إلى معاهد أوربا ولكنه فضل المعاهد النمسوية والبروسية عن الفرنسية والانجليزية . وممن أوفدهم ـ اسماعيل كامل ، حامد أمين ، عبد القادر حلمى ، عثمان غالب ، عبد الله شكرى ، محمد راسخ ، محمد نصحى ، يوسف شهدى ، ومصطفى نايل وغيرهم .

وفى عهد سعيد باشا أرسلت نجدة أخرى (١٨٥٥) ضد الروس . انتهت بانتصار القوات التركية المصرية ثم عقد الصلح بين الطرفين

وفى أيام حكم سعيد اشتركت إحدى الكتائب السودانيه فى طائفة من المعارك فى المكسيك لما استقدمها نابليون الثالث ـ إمبراطور فرنسا ـ بعد هل مصر الكبير ـ وهكذا دوّن جنود مصر بطولتهم على رمال تلك البلاد النائية فى العالم الجديد .

وقد أوفد سعيد باشا البعثات العسكرية من الشبان المصريين ومنهم :
ابراهيم رأفت ، أحمد راشد حسنى ، عثمان رأفت ، محمد راتب ، مصطفى فايد، يوسف النبراوى وغيرهم

ويمتاز عصر سعيد بظهور نهضة وطنية جديرة بأن تعددوراً من أدوار الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث

وترجع هذه النهضة إلى ميول سعيد باشا ذاته . فقد كان ذا نزعة وطنية نشأت فيه قبل أن يتولى الحكم . ولازمته بعد أن تولاه . وظهرت آثارها فى كثير من إصلاحاته وأعماله وقد كان يميل بجوارحه إلى خير المصريين ويبث فيهم روح الوطنية ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة . بعد أن كانت من قبل وقفاً على الترك والشراكسة (١)

وكان سعيد باشا ميالا إلى الجيش وإلى ترقية الضباط المصريين . وقد نقل عنه أحمد عرابى باشا خطبة ألقاها فى مأدبة فى ثكنة قصر النيل تدل على عواطف وطنية شريفة . وقال مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين

«... وحيث إنى أعتبر نفسى مصرياً . فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً . حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة . ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل »

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك — عصر اسماعيل ـ الجزء الأول ـ ص ٢٣ .